الباب الثانى

فى

أصل علم الطبائع والمخلوقات

من البداية إلى النهاية

obeikandl.com

اعلم هداك الله تعالى أن هذا الباب باب جليل القدر فى أصل علم الصنعة(٥٢) ، وكما جعلت الباب الأول أصلا وقاعدة لعلم الشريعة الذى هو أفضل العلوم ، فكذلك أيضا جعلت هذا الباب أصلا وقاعدة لعلم الصنعة ، فهو أيضا من أجَلِّ العلوم وأشرفها وغرضى بهذا الباب أيضا فائدتين :

إحداهما : التنبيه على قدرة الله تعالى وعظمته وبديع صنعته ورفيع حكمته الدالة على حقيقة معرفته .

الثانية : أذكر فيها أصولا شتى بنيت عليها باقى أبواب الكتاب ؛ لأنى جعلت باقيه كله فى علم الطبيعة وأودعت فيه علوما جليلة ، فاحرص على ذلك؛ لتفوز بالمطلب الأثنى(٥٣) وتطَّلع على المقصد ، والغرض مما أردنا ، فأقول والله الموفق للصواب إن شاء الله تعالى .

إن الله تبارك وتعالى لما كان قبل الأكوان والأزمان قديما فى أزليته ليس معه فى الوجود إلا هو ؛ أوجبت حكمته من غير وجوب عليه أن يخلق المخلوقات ؛ ليدلهم على معرفته بإظهار بديع صنعته ؛ لقوله تعالى **﴿وما خَلَقتُ الجِنَّ والإنس إلاَّ لِيَعبُدُونِ﴾** [الذاريات:٥٦] . أى : ليعرفونى فيوحدونى ، وقال تعالى : **((كنت كنزا لم أعرف ، فخلقت خلقا وتعرَّفت لهم فبى عرفونى))**(٥٤) .

---

(٥٢) فى النسخة (ك) : الطبيعة .

(٥٣) الثناء للشىء : فعل ما يُشعر بعظمته .

(٥٤) قال ابن تيمية : ليس من كلام النبى ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف . وتبعه الزركشى ، والحافظ ابن حجر ، والسيوطى ، وغيرهم . وقال على القارى : لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** أى ليعرفونى كما فسره ابن عباس رضى الله عنهما . وهو واقع كثيراً فى كلام الصوفية واعتمدوه وبنوا عليه أصولا لهم [مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧٠/١ ، كشف الخفا ١٣٢/٢] .

فأول ما خلق الله ؛ نوراً من نور وجهه الكريم معتدلاً لا يوصف بحركة ولا سكون ولا حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا ذكرٍ ولا أنثى ؛ بل جعله أصلا وسببا لجميع المخلوقات وهيولا[(٥٥)] جامعة لجميع الموجودات ، أودعها فيه جميعا بقوله تعالى ﴿كُنْ﴾ فكان ذلك النور موجوداً بعد العدم ، ثم كانت جميع الأشياء مُودَعة فيه بالعلم ، فهي موجودة فيه بالقوة مستعدة بالخروج إلى الفعل بتدبيره الكونى .

وهذا هو نور العقل الكامل الذى هو نور النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى نشأت منه الأنوار وجميع العقول المتفاضلات وجميع المخلوقات للحديث الصحيح الذى رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عن أول شيء خلقه الله تعالى ؟ فقال: ((هو نور نبيك يا جابر))[(٥٦)] .

---

(٥٥) الهيولى : لفظ يونانى بمعنى : الأصل ، والمادة ، وفى الاصطلاح : هى جوهر فى الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الإتصال والإنفصال محلّ للصورتين : الجسمية ، والنوعية ، أو الأصل الذى يخرج منه جميع الأشياء . [التعريفات للجرجانى ص٩٧] .

(٥٦) الحديث : رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله ، بلفظ قال : قلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء قال : ((يا جابر ، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن ذلك الوقت ؛ لوح ، ولا قلم ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا ملك ، ولا سماء ، ولا أرض ، ولا شمس ، ولا قمر ، ولا جنى ، ولا إنسى . فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء ؛ فخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الثانى اللوح ، ومن الثالث العرش ، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ؛ فخلق... إلى آخر الحديث)) . والحديث قال فيه الشيخ الألبانى : من الأحاديث المشهورة على ألسنة الناس وهو حديث باطل فإنه ، صح عن النبى ﷺ قال : ((خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار السموم ، وخلق آدم عليه السلام=

وحين خلقه الله خلق معه كل خير ، وأودع فيه كل شيء وهو حديث طويل ساق فيه جميع المخلوقات إلى مولده صلى الله عليه وآله وسلم ، وعليه بنيت كلامى هذا فى جميع هذا الباب ولخصت فيه أشياء كثيرة وأودعت فيه أسراراً غامضة اندرجت تحته ، قد تناولتها من العلوم الطبيعية التى وضعها علماء هذا الفنّ ، وذلك بعد النظر فى مِرْآة عين الحقيقة الجامعة لصور الحقائق .

وقد أجمع العلماء على أن أول شيء خلقه الله تعالى : نور العقل(٥٧) ، فقال له: **(أقبل)** فأقبل ثم قال له : **(أدبر)** فأدبر فقال : **((وعزتى وجلالى لا ركبتك إلا فى أحب خلقى إلىَّ))**(٥٨) . فكان ذلك عقل محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فبإقباله استمداده العلم من الله تعالى ، وبإدباره إمداده الخلق بالعلم

=مما قد وصف لكم)) . فهذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور ، دون آدم وبنيه ، فتنبه ولا تكن من الغافلين . [سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى (٤٥٨) ، كشف الخفا (٣١٠/١)] .

(٥٧) سيأتى فى هامش (٥٩) .

(٥٨) حديث : ((لما خلق الله العقل فقال له : أقبل فأقبل ، قال له أدبر فأدبر ...)) . ذكره صاحب كنز العمال (٧٠٥٨) وعزاه للطبرانى عن أبى أمامة . وقال الزركشى : كذب موضوع ، وتابعه فى ذلك ابن تيمية .قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على هذا الحديث وغيره من أحاديث مدح العقل : وكل ما روى فى العقل من الأحاديث فلا تصح منها شيء ، بل أطلق ابن تيمية قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على هذا الحديث وغيره من أحاديث مدح العقل : وكل ما روى فى العقل من الأحاديث فلا تصح منها شيء ، بل أطلق ابن تيمية عليها كلها بالوضع . قال ابن الجوزى : المنقول عن رسول الله ﷺ كثير ، إلا أنه بعيد الثبوت . وقال أبو حاتم بن حبان الحافظ : لست أحفظ عن النبى ﷺ خبراً صحيحاً فى العقل .[كشف الخفا ١٤٨/٢، ذم الهوى ص١٥ ، المشكاة (٥٠٦٦)] .

والمعرفة وهو أكمل الناس عقلا وأعظمهم فضلا وأرجحهم حلما وأغزرهم حكمة وعلما.

وهذا النور هو الذى تسمع به يقال فيه : ((كان الله عز وجل قبل العرش على جوهرة أو درة))(٥٩) . ونحو ذلك . فإنما يعنون هذا النور .

وحين خلقه الله تعالى خلق معه روح الأمر الذى هو أصل لجميع الأرواح ومنه مصدرها وإليه يؤول أمرها وأمره إلى الله تعالى ؛ إذ هو لوح أمره وإرادته بقلم علمه وقدرته يضع فيها ما شاء من بديع حكمته واختراع مشيئته ؛ ليظهر علم غيبه إلى عالم شهادته بواسطة روح الأمر ، ومن هاهنا مصدره .

ولما خلق الله تبارك وتعالى ذلك النور أقامه فى مقام القرب ، فمكث يعبد الله اثنى عشر ألف سنة فى مكان الاعتدال .

---

(٥٩) الحديث بهذا اللفظ ؛ لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من مصادر ، وهذا الحديث وإن صح يتعارض مع ما جاء فى أول الخلق . قال أبو جعفر الطبرى : وأولى الأقوال أن الله تعالى خلق الماء قبل العرش ، لصحة الخبر الذى جاء عن رسول الله أنه قال حين سئل : أين كان ربنا عز وجل قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : ((كان فى عماد ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق عرشه على الماء)) . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الله خلق عرشه على الماء . ويقول الحافظ ابن كثير: والذى عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمدانى وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك؛ أى قبل القلم؛ لما صح من حديث مسلم فى صحيحه عن ابن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقال وعرشه على الماء)) . وقال الإمام ابن أبى العز : واختلف العلماء : هل القلم أو المخلوقات ، أو العرش ؟ على قولين أصحهما أن العرش قبل القلم قلت فيتضح مما سقناه أن أول ما خلقه الله العرش ولم يكن شىء من خلق الله قبله ، والله أعلم . [شرح الطحاوية ٣٤٥/٢ ، تاريخ الطبرى ٥٩/١ ، البداية والنهاية ٨/١ ، مختصر العلوم ص١٠٣] .

فلما أراد الله تعالى ظهور النتيجة منه وخروج أول المخلوقات قال له : ﴿كن﴾ فانفلق نصفين : أعلى وأسفل ، فصار إلى طرفين ووسط .

فأما الوسط : فصارا نورا معتدلا ؛ إذ أصله من الاعتدال الكونى ، الذى هو قدرة الله تعالى وعلة العلل المعتدلات فى جميع المخلوقات ، فتولد منه طبيعة الوسط ؛ فخلق الله منها نور العقل الإلهاميِّات ؛ الذى هو أصل العقول الإلهيات المتفاضلات فى المخلوقيات ، وحين خلقه خلق معه الروح الأمين ، ومن هاهنا مهبطه . ثم خلق معه روح الحياة الذى هو أصلٌ لجميع الأرواح المحركات للأشباح .

وأما الطرف الأعلى : فصار نوراً شعشعانياً كله حارًّا كله حركة كله ؛ لأن أصله من الحركة الكونية التى هى قدرة الله تعالى وعلة العلل المتحركات فى جميع المخلوقات ، فتولدت منه طبيعة الحرارة المذكرة الفاعلة التى أصل الطباع الفاعلات . ثم خلق الله منه روح القدس ومن هاهنا مهبطه ثم خلق معه الروح النفسانى الذى هو أصل لجميع الأنفس الحساسة الشهوانية المتحركة بالأفعال والإرادات الإلهامية الصادرة عن الإرادة الربانية . ثم خلق من هذا النور العلوى العرش وحملته والنار وقلم النور .

وأما الطرف الأسفل : فصار ظلمة كله باردا كله ساكنا كله ؛ لأن أصله من السكون الكوتى الذى هو قدرة الله وعلة العلل الساكنات ، فتولدت منه طبيعة البرودة المؤنثة المنفعلة ، فكانت أصلا لجميع الأجسام المنفعلات . ثم خلق الله تعالى من ذلك الكرسى ، وخزنته والجنة واللوح المحفوظ .

فإذا سمعت بذكر ضدين يقال فيهما : أول ما خلق الله تعالى : الجنة والنار، أو البارد والحار ، أو الحركة والسكون ، أو القلم واللوح ، فإنما يعنون هذين الطرفين أعنى : الأعلى والأسفل المنفلقين من الوسط ، كما ذكرنا .

ثم مكثت هذه الأنوار تعبد الله تعالى فى مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة ، فلما أراد الله تعالى ظهور النتيجة منها أدار الطرف الأعلى على

الأسفل بسرٍّ ما أودع فيه من الحرارة المتحركة الفاعلة ، فامتزجا بالمزاوجة فى مكان الاعتدال وانطبع العلوى بالسفلى ، فكتب القلم فى اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة ، وذلك بقوله تعالى ﴿كن﴾ .

فلما وقع المزاج بين طبيعة الحرارة وطبيعة البرودة ، تولدت طبيعة اليبوسة فى الحرارة وطبيعة البرودة من الرطوبة ؛ فكانت أربع طبائع مختلفات ممتزجات فى جسم واحد ، وهو أول المزاجات الطبيعيات وهو أصل لجميع المخلوقات العلويات والسفليات ، فخلق الله منه الحدود والجهات والعقول الإلهاميات والأرواح الحيوانيات والأنفس الشهوانيات لاجتماع الطبائع الروحانيات المنفردات فيه . ومن ها هنا يعرف قولهم : خلق الله الأرواح الحيوانيات قبل الأجسام بكذا وكذا عام . وهذا أول المزاج ؛ هو الذى قال الله تعالى فيه **﴿أو لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّموات والأَرْضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾** [الأنبياء : ٣٠] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الرتق هو السد . فمكث يعبد الله تعالى فى مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة .

فلما أراد الله تعالى ظهور النتيجة منه قال له ﴿كن﴾ فانفلق أيضا إلى أعلى وأسفل ووسط .

فأما الوسط : فتولدت منه طبيعة الاعتدال الوسطى فبقيت فيه العقول الإلهاميات .

وأما الأعلى : فصعدت فيه الحرارة والرطوبة بالأرواح والأنفس ، فتولدت من ذلك طبيعة الحياة الفاعلة بما أودع الله تعالى فيها من السر المحى لكل شيء . فخلق الله من ذلك الفلك الأعلى الذى هو السماوات السبع ، فكانت أصلا للعوالم العلويات من الملائكة والكواكب المضيئات .

وأما الأسفل : فهبط فيه البرد واليبس ، فتولدت من ذلك طبيعة الموت

المفعولية ، فخلق الله منها الفلك الأسفل وهو الأرضين السبع فكانت أصلا للعوالم السفليات من المعادن والنباتات والحيوانات ، ثم خلق الله من الأرضين طينة آدم أبو البشر صلى الله عليه وآله وسلم من جميع جواهر الأرض : أحمرها وأصفرها وأبيضها وأسودها وصلبها ورخوها بقبضة قبضها بيد قدرته من جميعها ؛ ليكون ذلك سببا لبقاء أنواع نسله(٦٠) .

وهذا الاقتران بين الأعلى والأسفل جعله الله سببا لحياة الأجسام السفليات الموات بها ينزل عليها من أرواحها العلويات التى صعدت عنها إلى الفلك الأعلى وهو معنى قوله تعالى ﴿**ففتقناهما**﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : ففتقنا السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

ولما كان الفلك جامداً لا حركة له إلا بدوران الكواكب والعناصر معه وصارت الطبائع مفترقة قد جمعت الأرواح والأنفس وطبيعة الحياة فى الأعلى ، وبقيت الأجسام الموات ، وطبيعة البرد واليبس فى الأسفل ،

---

(٦٠) قال الآلوسى فى تفسيره : إنه لم يجىء فى ترتيب الأجرام العلوية ، والسفلية ، وشرح أحوالها كما فعل الفلاسفة عن الشارع شىء ، لما أن ذلك ليس من المسائل المهمة فى نظره – عليه الصلاة والسلام– وليس المهم إلا التفكر ، والإستدلال بها على وحدة الصانع ، وكما له –جل شأنه– وهو حاصل بما يُحَسُّ منها ، فسبحان من رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض ، وجعل فيها رواسى . ويقول الدكتور أبو شهبة: ما كان رسول الله ﷺ يتعرض للكونيات بهذا التفصيل ، ولما سئل عن الهلال لم يبدو صغيراً ثم يكبر ، حتى يصير بدراً ، ثم يصغر ؟ وأجاب بالفائدة ، فقال ﴿**هى مواقيت للناس والحج**﴾ . والقرآن والسنة النبوية حينما يعرضان للحديث عن الكونيات يكون غرضها انتزاع العبرة ، والاستدلال بما أودع الله فيهما على وجود الله –جل وعلا– ووحدانيته ، وقدرته ، علمه ، وسائر صفاته ؛ ولذلك : لا نقف فيما صح وثبت من الأحاديث على مثل هذه التفصيلات التى نجدها فى الآثار الضعيفة ، والإسرائليات الباطلة [تفسير الألوسى ١٣/٩٩ ، الإسرائليات والموضوعات فى كتب التفسير ص٢٩١] .

وصـــارت الأجسام مفترقة مفتقرة إلى أرواحـــها التى صعدت عنها ؛ دَبَّرَ الله تعالى حياتها لظهور النتيجة منها ، فأدار الفلك الأعلى على الأسفل دوره ثانية بقول ﴿كن﴾ فازدوجت الطبائع وامتزجت مزاجاً ثانيا فـى موضـع الاعتدال ، فتولدت منها العناصر المركبات ؛ فحصل من مزاج الحرارة مع اليبوسة عنصر النار ، فخلق الله منه الشمس والجن والشياطين والحرارة الغريزية التى تتحرك بها الأرواح فى بواطن الأجسام ، فركب الله تعالى الشمس فى السماء الرابعة فى وسط الفلك ؛ ليكون بها حياة العالم العلوى والسفلى ، وضياء العالم أجمع . ثم أسكن الله تعالى الجن والإنس والشياطين فى أطراف الأرض ، وأسكن الحرارة الغريزيـة فـى قلب آدم عليه السلام . وذلك أن الله عز وجل أول ما كوَّن منه القلب ، والقلب بارد يابس ساكن ميت فأدْرَج(٦١) فيه روح الحياة المحركة للجسم ، فحركت منه الساكن ولم يُسيِّر بحرارة تفعل فى البارد ، فخلق الله الحرارة الغريزية لذلك وأدرجها فى باطن الروح فَسَرَت بها فى جميع البدن فجىء من موته بالروح الحيوانية وسخن برده بالحرارة الغريزية ، فكان ذلك سببا لحركته وإنعاشه بعد السكون دائما طول حياته .

فمن أجل ذلك ؛ جعل الله القلب بيت الحياة ومبدأ الحركات ومصدر الإرادات الربانيات ، فهو سلطان البدن كله أجمع ، لكون خلقه أولا ولصدور هذه الحرارات والحركات الطبيعية منه . فمنه مبدؤها وإليه تؤول أمرها فى جميع حياته ، ومنه خروجها عند مماته فتولد من هذا المزاج فى جسم آدم عليه السلام خلط الصفراء الحار اليابس ، فخلق الله تعالى منه المعدة بيتا للصفراء وجعلها أمام القلب تخدمه بقوة هاضمة للغذاء الذى به قوامه ؛ ليكون ذلك سببا لحياته ومادة لحفظ بدنه مدة عمره ، والله أعلم .

---

(٦١) أدخله .

ثم خلق الله من مزاج الحرارة مع الرطوبة عنصر الهوى ؛ فخلق الله منه ملائكة السماوات السبع ، وزينها فيها وأوحى فى كل سماء أمرها ، فتولد من هذا المزاج فى آدم عليه السلام خلط الدم ، فخلق منه الله الكبد بيتا للدم وجعلها عن يمين القلب تخدمه بقوة غاذية للبدن مولِّدة لدم الغذاء ؛ ليكون ذلك سببا لنمو جسمه ومادة لقوة بدنه وداوم حياته مدة عمره ثم حصل من مزاج البرد مع الرطوبة عنصر الماء ، فخلق الله منه القمر والكواكب ، فركّب زحل فى السماء السابعة ، والمشترى فى السماء السادسة ، والمريخ فى السماء الخامسة ، والزهرة فى السماء الثالثة ، وعطارد فى السماء الثانية ، والقمر وسائر الكواكب فى سماء الدنيا ، فجعل الله ذلك زينة لها ورجوماً للشياطين عنها لحفظها وهداية للعالمين ، ثم نبَّه على ذلك بقوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك :٥] .

وقوله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام:٩٧] .

ثم أودع الله تعالى الطبيعة الفاعلة فى الكواكب السيارة فى الفلك الأعلى من السعد والنحس ، ما يجرى فيه بالخير والشر على ما يناسبها من العوالم(٦٢) . السفليات فى الفلك الأسفل عند التدبير بإذن الله تعالى ، ومن الأرزاق ما ينزل به ماء المطر فيكون حياة الأرض وما فيها ، ثم نبَّه على ذلك بقوله تعالى ﴿**وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات : ٢٢] . وأقسم بنفسه أن ذلك حق ، فقال تعالى ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات :٢٣] . ثم تولد من هذا المزاج البارد الرطب خلط البلغم ، فخلق الله تعالى منه فى آدم عليه السلام الرئة بيتا للبلغم وجعلها عن يسار القلب تخدمه بقوة ماسكة لروح الحياة باستنشاق الهواء الذى يصل من الرئة إلى القلب فيتنفس به من فرط الحرارة الغريزية .

---

(٦٢) فى النسخة (أ) : العلوم .

ثم خلق الله تعالى ، أيضا من هذا المزاج الدماغ وجعله بيتا للحس[٦٣] والحركة النفسانية ثم أدرج النفس الحساسة فيه ؛ لتعيين الروح بالحس والحركة وإيصال ذلك إلى سائر البدن ؛ ليكون بذلك تمام فعل الروح المتحركة فى جميع البدن مدة عمر الإنسان ثم حصل من هذا مزاج البرد مع اليبس عنصر الأرض ، فخلق الله منه المعادن ، فهى أول المركبات الثلاثة .

وخلق أيضاً من هذا المزاج البارد اليابس عظام آدم عليه السلام ، فتولد من ذلك خلط السوداء فى الإنسان ، فخلق الله منه الطحال بيتا للسوداء وجعله تحت القلب يخدمه بقوة جاذبة للخلط الردىءعنه ؛ ليكون ذلك حفظا لجسمه ومادة لبقاء شخصه مدة عمره ، والله أعلم .

ثم خلق الله تعالى لكل عضو من هذه الأعضاء الشريفة فى الإنسان آلات[٦٤] تعينها على تمام فعلها .

[الآلات المعينة على تمام فعل الأعضاء]

أما القلب : فخلق الله له آلة الشرايين ، وهى عروق تنبت من تجويفه الأيسر وتمر فى جميع البدن أعلاه وأسفله بين[٦٥] العصب ، فتصعد بالحرارة الغريزية وروح الحياة أولاً إلى الدماغ الذى جعله الله بيتا للحسّ والحركة ، ثم تنفذ بذلك فى[٦٦] جميع البدن .

وأما الدماغ : فخلق الله تعالى له النخاع والمخ والعصب والعضلات والأوتار ؛ ليجذب تلك الحركة والحس والحياة والحرارة الغريزية إلى سائر

---

(٦٣) فى النسخة (ك) : النفس .

(٦٤) فى النسخة (ك) : عروق .

(٦٥) فى النسخة (ك) : فى .

(٦٦) فى النسخة (ك) : إلى .

أعضاء البدن ، فيكون بذلك تمام أفعال القلب المتحرك بروح الحياة وتمام فعل الدماغ(٦٧) المتحرك بالحسّ والحركة النفسانية الحيوانية مدة عمر الإنسان .

وأما الرئة : فخلق الله تعالى لها المنافذ التي توصل الهواء إلى القلب فيتروح بها من فرط حرارته ويعتدل بها طبعه(٦٨) وتستمد الرئة أيضا من القلب حرارة يعتدل بها طبعها البارد ، فيقوى الفعل منهما معا .

وأما الكبد : فخلق الله تعالى لها العروق التى توصل منها دم الغذاء إلى جميع أعضاء البدن ، وذلك أن عروق الإنسان أصلها جميعا عرق واحد عظيم ينبت من حذية الكبد ثم ينفرش بعروق شتى فى جميع البدن أعلاه وأسفله ، فإذا استحال الغذاء دماً أخذ كل عرق قسطه من ذلك الغذاء ، فيمر به إلى منتهاه؛ فيكون بذلك النموُّ وبقاء الحياة . ثم خلق الله تعالى لها أيضا آلات لإزالة الفضلات الرديئة عن دم الغذاء ، وهى : أوعية المنى ، والكلى ، والمرارة ، والطحال .

أما أوعية المنى : فتأخذ ما استحال إلى الطبخ الرابع من خالص الغذاء، واستعد لخروج المنى منه إلى آلات النسل ؛ ليكون بذلك حفظ نوع الإنسان إلى آخر الدهر .

وأما الكلى : فتمتص الفضلة المائية عنه ، وتنفذها إلى المثانة فتخرج عند البول إذا استعد بإرادة طبيعية .

وأما المرارة : فهى كيس معترض بين الكبد والأمعاء ، له فم من جانب الكبد يمتص به الرغوة الصفراوية عن دم الغذاء ، ثم ينفذها من فم آخر متصل بالأمعاء إليها فيعينها بذلك على فعل الهضم ، ثم ينزل مابقى منها إلى السُرْم(٦٩) ، فيخرج مع الغائط .

---

(٦٧) فى النسخة (ك) : القلب .

(٦٨) فى النسخة (ع) : بها طبيعته .

(٦٩) طرف المعى المستقيم والدُبُر ، والعامة تقولها بالصاد .

وأما الطحال : فخلق الله لها فمين ؛ أحدهما : من أعلى متصل بالكبد تمتص به منها الدم السوداوى المتعكر من دم الغذاء ؛ ليصفو من ذلك . والفم الآخر : متصل بالمعدة ، يقذف إليها كل يوم نصيبا من ذلك الدم السوداوى، فيعينها بحموضة وقبوضة على فعل الهضم ، ويفتق شهوتها ويقوى طبعها ، وخلق لها فماً ثالثا من أسفل يدفع به مافضُل من الدم المتعكر السوداوى إلى السرة فيخرج مع التفل فيصفو عند ذلك دم الغذاء من جميع الفضلات الرديئة فتمر به العروق من الكبد صافيا إلى جميع الأعضاء كل عضو يجرى بقسطه صغيرا كان أم كبيرا . والله أعلم .

وأما المعدة : فخلق الله تعالى لها الأمعاء وآلات المخرج والمدخل النافذة .

وأما الأمعاء : فتمتص من المعدة ما هضمته من الطعام فتهضمه أيضا فيها هضما ثانيا ، ثم تدفعه إلى الكبد ، وقد صار ماءاً لطيفاً أبيضاً فيصيغه الكبد حين يتولد دماً أحمر بطبيعة الحيوان ، فيصير غذاء ، كما ذكرنا .

والأصل فى ذلك : أن الغذاء عرضى وذاتى ؛ أى بالقوة والفعل :

أما العرضى : فما كان طعاما عند الأكل .

وأما الذاتى : فما صار مناسبا للحيوان صالحا لقوامه ، ولا يكون كذلك إلا بعد استحالته باللطافة ثلاث مرات ، كاستحالة المعدن (٧٠) إلى النبات والنبات إلى الحيوان ، وذلك أنه يصير عند الأكل فى المعدة كطبيعة المعدن الكثيف حتى إذا استحال إلى الأمعاء كان فى اللطافة كطبيعة النبات المتولد من المعدن ، فإذا استحال إلى الكبد صار فى اللطافة كطبيعة الحيوان حارًا رطباً صالحاً للاستحالة عند الدموية لحماً نامياً فى أجساد الحيوان ينمى بالرطوبة فى جميع العصب والبشر والجلد والشعر .

---

(٧٠) يقصد به جنس المعادن مثل الحديد ، والنحاس ، وغيرها .

[منافذ المخرج والمدخل لدى الإنسان]

وأما منافذ المخرج والمدخل :

فمنها الفم : خلقه الله تعالى ، لإدخال الطعام عند الأكل وإخراجه من أعلى إذا تغير على فم المعدة ، وأيضا تعينها بقطع الطعام وطحنه بالأسنان والأضراس التى جعلها الله آلة لذلك ، وباللسان الذى جعله الله مغرفة لتقليب الطعام يمينا وشمالا عند الطحن ولدفعه إلى الغَلْصَمَةِ(٧١) التى تنفذه إلى المرىء الذى هو فم المعدة الأعلى .

ومنها الدبر : الذى جعله الله منفذا لما يتهيأ من نقل الغذاء عند تمام نضاجه واستحالته .

ومن المنافذ السمع والبصر : القائم فعلهما بواسطة الهواء .

ومسام الشعر أيضا : لأن أصل الشعر بخار يرتفع من الأغذية الطبيعية من الجوف على سبيل الاستعانة ، فيكون بذلك راحة البدن .

وهذا التشريح راجع إلى أصل علم الطب ، ولنذكر منه فصلا فى آخر الكتاب يكون به تمام هذا الكلام لئلا(٧٢) يخلو كتابنا هذا من فائدة فى أصل علم الطب ؛ لأنه علم شريف جليل القدر من العلوم الطبيعة ، ولنرجع إلى ما نحن بصدده من تمام التراكيب والأمزجة الطبيعية .

ولما أكمل الله تعالى خلق آدم عليه السلام عند تمام مزاج الطبائع والعناصر وتركيب المعادن ؛ ركب الله تعالى فيها العقل والعلم والحلم ، وعلمه الأسماء كلها وفضله على الملائكة وعلى سائر المخلوقات ؛ لأنه المطلوب من جميع تلك الخلائق التى خُلِقَتْ قبله ؛ لأنها خلقت كلها لأجله ، وهو مخلوق للعلم والمعرفة بالله تعالى .

---

(٧١) فى النسخة (ع) : القاطمة .والغلصمة : هى رأس الحلقوم والجمع : غلاصم .

(٧٢) فى النسخة (ع) : لكيلا .

وأيضا فإنه[٧٣] أبو الأولياء والأنبياء ؛ الذين هم أفضل خلق الله تعالى ومنه خرج محمد ﷺ ؛ الذى شق الله من نوره الكامل الطاهر المقدس جميع أنوار الخلائق أجمعين ، فهو عين الوجود وإليه الإشارة بكل المقصود من البداية إلى النهاية .

ولما امتزجت الطبائع مزاجين ؛ أحدهما : بسيط ؛ وهو مزاج الطبائع المفردات . والثانى : مركب ؛ وهو مزاج العناصر المزوجات ؛ ركب الله تعالى من ذلك جنس المعدن وهو أول المركبات الثلاثة التى هى : المعدن ، والنبات، والحيوان .

ثم ركب الله تعالى مع المعدن صورة الآدمى التى هى أكمل صور المخلوقات ، وركب الأرواح والأنفس فى الأجسام ، كان ذلك معنى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

قال المفسرون : وهو ماء نطفة الحيوان . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو ماء المطر . وهذا هو الصواب ؛ لأن نطفة الحيوان لا تكون منها إلا توليد الحيوان فقط ، وماء المطر يكون منه توليد المعادن والنبات والحيوان جميعا .

والأصل فى ذلك : أن الفلك الأعلى جامع لطبيعة الحياة والأرواح والأنفس التى بها حياة الأجسام السفلى جميعها ، كما قدمنا فإذا وقع ماء المطر بما أودع الله فيه من سرّ الحياة ، على الفلك الأسفل البارد اليابس الموات[٧٤] ، حُىَّ وتحرك ونمى وتكونت منه جميع جواهر المعادن والنبات والحيوان ؛ لأن الحيوان يتولد من النبات . والنبات يتولد من المعدن .

---

(٧٣) فى النسخة (أ) : فهو

(٧٤) ما لا روح فيه .

والمعدن يتولد من الطبائع الفاعلة والمنفعلة ومن هاهنا يُعرف سرٌّ معنى قوله تعالى ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات :٤٩] .

وأصل الجميع : من الحرارة والحركة الإلهية التى هى قدرة الله ، وعلة العلل المحركة لجميع الساكنات ؛ ليكون من ذلك الوجود بعد العدم والحياة بعد الممات ، فحياة الأرض بعد موتها دليل على أن الله تعالى يُحيى الموتى بعد الفناء وإلى ذلك أشار بقوله تعالى ردًّا على من أنكر البعث والحياة بعد الموت ، فلما استبعدوا ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله **﴿أَفَلَمْ يَنْظُرواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَاركاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾**[ق:٦:١١] .

أى كما أحيينا الأرض بعد موتها بذلك الماء ؛ كذلك يحييكم بعد موتكم، وكما أخرجنا جواهر المعادن والنبات والحيوان من الأرض وأوجدناها بعد عدمها وفنائها ؛ كذلك الخروج الذى أنكرتموه يكون بقدرة مَنْ يقولُ للشىء **﴿كن فيكون﴾** ، ومَنْ هو على كل شىء قدير .

وقد بالغ بعض الكفرة فى الإنكار وأوْغَلَ(٧٥) فى الاستعداء(٧٦) فقال : لو أن آدميا أكله آدمى آخر واستحال إليه لحماً ودماً ، ثم أكل ذلك الآدمى آدمى آخر فاستحال إليه (أيضاً ولحماً ودماً) ، وهكذا إلى ألف آدمى أو أكثر ، ثم مات الآخر منهم فأكلته الأرض حتى فنى وانعدم ، ولم يوجد له أثر ، كيف يكون رجوع شىءٍ من ذلك ؟ وكيف يكون حياته بعد موته ؟ وكيف

---

(٧٥) بالغ وأبْعَد ، وأوغل فى الاستعداء : أى بالغ فى التهيؤ للجدل .

(٧٦) فى النسخة (ك) : الاستعلاء .

يكون وجوده بعد عدمه ؟ وكيف يُستَخرَجُ من استحال من جميع ذلك حتى يتميز كل واحدٍ منهم على حِدَته بذاته فاستبعد ذلك بجهله .

فالجواب له : إن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وليس بعزيز عليه أن لو استحال جميع المخلوقات بعضها إلى بعض واختلطوا كلهم فصاروا دماً ولحماً واحداً وهواءً وناراً ، أو ألطف شيء يكون ، ثم فُني ذلك كله ولم يوجد له أثر فإن الله تعالى قادر على أن يوجده بعد عدمه ويرده كما كان أولا ، ويميز كل واحد منهم على حدته بذاته حتى يعيد إليه دمه ولحمه الذى كان عليه فى حال حياته الأولى ، فيُعذِّبُهُ بكفره أو يُنَعِّمُهُ بإيمانه ، فإنه على كل شيء قدير .

والدليل على ذلك : أن الله تعالى اخترعهم أولا بعد أن لم يكونوا شيئا بغير كلفة ولا مشقة ولا استعانة بآلة ولا شيء غير قوله ﴿**كن**﴾ فما أسهل ذلك عليه وأهونه ألم تر إلى قوله تعالى ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً**﴾ [الإنسان :١] .وقوله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم:٢٧] .أى : يُوجِدُهُ بعد العدم أولاً ، وينشئه طورا بعد طور بحكمته ، ثم يعدمه بعد الوجود ، ثم يوجده بعد العدم مرة ثانية ، أى ردَّ روحه فيه أيسر مما خرجت عنه وهو أهون وأسهل عليه أى على المخلوق ؛ لأن الروح عند خروجها تتعسر لكراهية الموت وفراق الجسد فإذا أعيدت رجعت أسهل مما خرجت ؛ لشوقها الطبيعى إلى الجسد الذى جعله الله شبحا(٧٧) لها فى أصل الخلق .

وقوله تعالى ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾ [العنكبوت:٢٠] . أى : اخترعهم من العدم إلى الوجود ثم أعدمهم ، ثم الله يُنْشِىءُ النشأة الآخرة ؛ أى كما أوجدهم من العدم أول مرة كذلك يُجدهم بعد الفناء ثانية ، وهكذا إلى مالا نهاية له من الإيجاد والإعدام ، إن الله على كل شيء قدير .

---

(٧٧) الشخص ما بدا لك شخصه من الناس وغيرهم من الخلق، يقال: شبح لنا أى مثل لنا.

ولنرجع إلى ما نحن ذاكروه من تمام المخلوقات ، وذلك أن آدم عليه السلام لما كملت خلقته تركيبا ، طبائع وعناصر ، وتم مزاجه مفرداً ومركباً كان كامل الخِلْقَةِ فى نفسه ، ولما لم تمتزج الطبائع إلا مزاجين ، ولا كمال لها إلا بأربعة أمزجة ؛ لتنقسم الطبيعة على مَضْرُوب الطبائع[٧٨] الأربع فى مثلها فيكون ميزان الطبيعة ستة عشر جزءا ، فمن هاهنا كان آدم عليه السلام ناقصاً عن حفظ شخصه وقوام بدنه وبقاء نوعه الذى لا كمال له إلا بذلك ، وافتقر أولا إلى ثبات شخصه وقوام بدنه بالغذاء ، فأدار الله ذلك الفلك الأعلى على الأسفل دورة ثالثة فامتزجت الأرواح بالأجسام مزاجا ثالثا فى موضع الاعتدال ، فخلق الله تعالى النبات والحيوان البهيمى وسائر الحيوانات غير الآدميين وكان من ذلك غذاء آدم صلى الله عليه وسلم ونماؤه ومادة حفظ شخص بدنه مدة عمره

ثم افتقر ثانيا إلى بقاء نوعه فأدار الله تعالى الفلك الأعلى على الأسفل دورة رابعة ، فامتزجت الأرواح بالأجسام مزاجاً رابعاً فى موضع الاعتدال ، فخلق الله تعالى من آدم عليه السلام حواء أم البشر ، فكان هو وهى كالهيولى[٧٩] المفترق إلى أعلى وأسفل ، ذكراً وأنثى من شيء واحد ، وذلك أن الله تعالى ألقى عليه سِنةً ثم أخرج ضِلْعَةً من ضلعِه الأيسر فصورها حواء ، فما انتبه إلا وهى عنده مصورة فى أحسن صورة كصورته فحببها إليه من سائر الخلق ثم أزوجها به فكان باجتماعهما حفظ النسل وبقاء النوع الآدمى إلى آخر الدهر .

ولما كانت الطبائع أربعا والمزاجات أربعا ، ولم يصح منها فى التركيب إلا ثلاثة ؛ لأن المزاج الأول بسيط والبسيط لايعد من المركبات ،

---

(٧٨) أى اجتماعها مع بعضها البعض .

(٧٩) المادة الأولى للأشياء .انظر : الهامش (٥٦) من هذا الكتاب .

ولا يختلط بها لاستغنائه عنها بوحدانية الأولى ، فاحتاجت الثلاثة إلـى تركيـب رابع يكون به تمام المزاج والكمال الطبيعـى ، فكـان ذلـك نقصـان أيضـاً عـن بلوغ درجة الكمال بجميع الآدمين ، فقـدر اللـه سبحانه المـوت علـى العبـاد ؛ ليفرق بين الأرواح والأجساد فتصعد الأرواح إلى عنصرها الأعلى الـذى هـو طبيعة الحياة ، وتبقى الأجساد أسفل منـه فتفنـى وتبلـى ، فيصـير الجميـع إلـى أعلى وأسفل أيضا ، كما تقدم من كـل هيولـى. ، وذلـك إلـى النفخـة الأولـى ، حتى إذا تم عمر الدنيا المحتوم إلى الأجل المسمى ، ونفخ فى الصـور النفخـة الأخرى ؛ أعاد اللـه تعـالى الأرواح إلـى أجسـامها، فـامتزجت مزاجـا خامسـا ينفرد منها البسيط ببساطته ، وتبقى المركبـات أربعـة ، فيتـم المـزاج الطبيعـى ويصح التركيـب الحقيقى فتكون منه الحياة الخالـــدة الأبديـة المقدرة بحكمـة الله تعالى كما قال الله تعالى ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**﴾ [ق:٣٤] .

فهذه مصنوعات الله عز وجل المعلومة من علم الطبيعة المؤيد لعلـم الشـريعة بما سطرته يد القدرة بالحكمة البديعة ؛ ليقرأه أولـو البصـائر ، وأولـو الألبـاب من أهل العلم والمعرفة الذين مدحهم الله فى محكم كتابه بالعلم والإيمان حيـن أوقفهم على حقائق ذلك ، فقال تعالى ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّـا بِـهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَـا وَمَـا يَذَّكَّـرُ إِلاَّ أُولُـواْ الأَلْبَـابِ**﴾ [آل عمران:٧] واللـه أعلـم وأحكم ، والحمد لله رب العالمين .